أثر الوازع الدّيني في فقه التّحضّر الإنساني

The effect of religious motivation in the jurisprudence of human civilization

نبيل موفق

جامعة الشّهيد حمه لخضر الوادي (الجزائر) ، mouffok-nabil@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2019/11/16 تاريخ القبول: 2020/10/07 تاريخ النشر : 2020/12/31

الملخص:

في هذا المقال ناقشت إشكالية المزج بين الوازع الدّيني وفقه الحركة التّحضّريّة، فبدأت بإعطاء مفهوم للوازع الدّيني، ثمّ تحدّثت عن مفهوم فقه التّحضّر باعتباره المشروع الموصل إلى تطوير النّظام الاجتماعي عند الشّعوب، وذلك بالاستثمار الرّشيد للموارد الاقتصادية، والحكم السّديد بالنّظم السياسية، والمتابعة المتناسقة لمختلف العلوم والفنون، وربط ذلك كلّه بالمبادئ الأخلاقية.

وختمت المقال بإلقاء نظرة مختصرة عن بعض مظاهر الحضارة في ظل رعاية الوازع الدّيني.

كلمات مفتاحية: الوازع، الدّيني، فقه، التحضّر، الإنساني

Abstract:

In this article, I discussed the problem of mixing religious belief with the jurisprudence of the urban movement.

And the arts, and linking it all to ethical principles.

The article concluded with a brief look at some aspects of civilization under the auspices of religious faith.

Key words: Faith, religious, jurisprudence, civilization, humanity.

المؤلف المرسل: د. نبيل موفق،**الإميل:** mouffok-nabil@univ-eloued.dz

المنارة للاستشارات

1. مقدمة:

إنّ من وسائل التّمكين في الأرض: العلم؛ إذ به تتفوّق الشّعوب المتحضّرة، وبه تقود العالم وبه وحده تستطيع اللّحاق بركب الحضارة إذا أصبحت مؤهّلة لحمل ألويتها.

وإنّ الحديث عن هذا التّأهيل وشروطه يجرّنا إلى الحديث عن دور العلم والعلماء، فالعلم كغيره من الخيرات يمكن أن يكون نعمة إذا أحسن استعماله، أو نقمة إذا أسيئ استخدامه، وتحدّد طرق الاستخدام هذه داخل البيئة الثّقافيّة ضمن حزمة من القيم تؤلّف ما يُسمّى بالأخلاق والحكمة.

ولا وجود لأيّ تغيير نحو الأحسن في المجال الاجتماعي والحضاري إلاّ بعد التّمسّك بالقيم العلميّة والخلقيّة والدّينيّة، لأنّ الحوادث التّاريخيّة والتّجارب الإنسانيّة علّمتنا أنّ سبب تخبّط الشّعوب في بحر الأزمات الخانقة هو الانفصام الكامل بين المعرفة العلميّة والمعرفة الدّينيّة، وعدم الإقرار بوجود التّكامل التّام بينهما، حتّى غدا العلم في حدود معيّنة لا يصل إلى دائرة صنع القرار الذي يؤثّر في المنظومة الاجتماعيّة والحضاريّة للشّعوب، فأصبح هناك انفصال إن لم نقل حالة من العداوة بين السّيف والقلم، والحكم والعلم، والسّلطان والقرآن، ونتج عن ذلك وجود سلطة سياسيّة بعيدة عن مفهوم الآليّة الحيويّة لدفع الازدهار الاجتماعي والحضاري، وباتت ركيزتها السّلطة والقوّة فقط، في حين عاد العلماء إلى ممارسة دورهم خارج دوائر الحكم، وظلّت الحياة الاجتماعيّة في تجاذب بين الدّوائر التّنفيذيّة والدّوائر العلميّة.

وقد توالت جهود العلماء من أجل إيجاد حلّ لإقحام النّظريّات العلميّة وتفعيلها في الحياة الاجتماعيّة للنّاس حتّى تدفعهم إلى التّطلّع الحضاري الإنساني الرّشيد.

ولا شكّ أنّ من بين أسس التّغيير الاجتماعي والحضاري ما هو متأصّل في نفوس المتطلّعين إلى ذلك من وازع ديني، لأنّ من مقوّمات الحضارة الفكرة الدّينيّة.

فما هو أثر الوازع الدّيني في دفع عجلة التّغيير الاجتماعي والحضاري المنطلق من منظومة فقه التّحضّر الإنساني؟.

-فرضيات البحث:

المنارة للاستشارات

-فإذا كنا نسمع بعض الأصوات ونقرأ بعض الكتابات التي تدعو إلى تعويض الأخلاق الدّينية بأخلاق وضعية، علمانية، وتنكر الفطرة البشرية فإنّه من الضّروري علينا أن ننادي بالتصرّف في ناتج العلم طبقاً للأخلاق والدّين لنتجنّب الكوارث والأزمات النّاجمة عن فصل العلم عن الضّمير وعن القلب، وكل هذا من أجل ضمان السير الحسن لمنظومة فقه التّحضّر الإنساني.

- يسعى الوازع الدّيني إلى توفير تغطية كاملة لحاجات العنصر الإنساني في الحياة، بل إلى تزيين هذه الحياة بكلّ ما هو كمالي تحسيني زائد عن الضّرورة والحاجة، ولعلّ هذا السّعي هو الذي يُشكّل الوعاء الأوسع لقيام حركة التّحضّر.

- الوازع الدّيني هو عصب الحياة للنّظام الاقتصادي، إذ كلّما قام المواطنون بواجباتهم كاملة ضمنوا إنتاجاً وافراً، ولا شكّ أنّ هذا الالتزام نابع من الوازع الدّيني الصّحيح.

-أهداف البحث:

- بيان الصّلة الوثيقة التي تربط الوازع الدّيني بمعاني التّحضّر الإنساني وأنّ حضارة لا تنطلق من أساس أخلاقي ووازع ديني صحيح عمرها قصير ونفعها قليل.

- التّنبيه على أنّ منطق الحضارة حينما يتجرّد من المدلول الأخلاقي سيترك انعكاسات سلبيّة على صعيد السّياسات الاقتصاديّة للدّول، كما هو الوضع الرّاهن في بعض الدّول.

- بيان خطورة انفصال الحضارة عن القيم الخلقيّة والنّظم الدّينيّة الرّشيدة التي من آثارها ظهور الاتّجاهات السّلوكيّة الخطيرة والتي تعكّر صفو المسار الاجتماعي والإنساني.

-منهجيّة البحث:

بدأ هذا البحث ببيان مفهوم الوازع الدّيني، ثمّ مفهوم فقه التّحضّر الإنساني وتجلية أسسه، وتمّ بيان العناصر الضّروريّة للحضارة وصلتها بالوازع الدّيني، وختم البحث ببعض مظاهر الحضارة في ظل رعاية الوازع الدّيني.

المنارة للاستشارات

2. مفهوم الوازع الدّيني:

1.2 تعريف الوازع لغةً:

تكاد تتّفق معاجم اللّغة في تعريف الوازع على أنّ له معنيين :

– الكفّ عن الشّيء، أوكفّ النّفس عن هواها، ووزعته: كفته، واتَّزع هو أي :كفَّ. (ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص390، مادة (وزع)).

ومنه قول الحسن البصري–لمَّا ولي القضاء–:« لابدّ للنّاس من وزعة »، ويقصد بذلك ما تعنيه كلمة الوازع في اللّغة، وهو الكف، إذ الوزعة هم الأعوان الذين يكفّونه عن الشَّر والفساد، وفي رواية: «من وازع »، أي من سلطان يكفّهم ويزع بعضهم بعض. (الأزهري، معجم تهذيب اللّغة، ص3884).

وقال أبو عبيد–في حديث أبي بكر– رضي الله عنه– وقد شكى إليه بعض عماله– فقال: «أأنا أقيد من وزعه الله »، الوزعة جمع الوازع، والوازع هو من يكفّ النّاس ويمنعهم عن الشّر....فكان أبا بكر إنما أراد: إنّي لا أقيّد من الولاة الذين يزعون النّاس عن محارم الله تعالى، يعني: إذا كان الفعل منهم بوجه الحكم والعدل لا بوجه الجور. (الهروي، غريب الحديث،سنة1396 هـ،ج3/ص228).

– الإلهام والإغراء.

أمَّا الإلهام فيقال: « أوزعه الشّيء: ألْهَمَهُ إيَّاه وأولعه به» (ابن منظور، لسان العرب، ج8/ص391).

وأمّا الإغراء فيقال: أوزعته بالشيء: أغريته به، فأوزع به فهو موزوع به،أي مغرى به. (الجوهري، الصّحاح، ج3/ص595، مادة (وزع)).

وقيل: بأنّ هذا المعنى هو: الإلهام، مأخوذ من المعنى الأوّل الذي هو: الكف، فيكون المعنى: كفَّني عن الأشياء إلاّ عن شكر نعمتك، أي: كفَّني عمَّا يباعد منك. (ابن العربي، أحكام القرآن، ج3/ص345).

2.2 تعريف الوازع اصطلاحاً:

لقد استعمل العلماء لفظ "**الوازع**"، وما يشتق منه في كلامهم، غير أنّهم لم يضعوا تعريفا اصطلاحياً خاصّا به –في حدود ما اطّلعت عليه– على غرار ما تعارف عليه من وضع حدود ومفاهيم للمصطلحات الشّرعية الأخرى، ولعلَّ هذا ناتج عن حداثة هذا المصطلح،

المنارة للاستشارات

وأدق تعريف وجدته، هو تعريف الطّاهر بن عاشور إذ قال: « الوازع اسم غلب إطلاقه إلى ما يزع من عمل السوء» (ابن عاشور، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، سنة2001م، ص137).

وكذلك تعريف السيد سابق حينما قال: « هو الشعور النّفسي الذي يقف من المرء موقف الرّقيب، يحث على أداء الواجب، وينهى عن التّقصير، ويحاسب بعد أداء العمل، مستريحاً للإحسان مستنكراً للإساءة» (سابق، السّيّد، عناصر القوّة في الإسلام، ص48).

وعليه سوف أورد بعض أقوال العلماء التي تعطي مفاهيم جزئية لمعنى الوازع، غير أنها بمجموعها توصل إلى إظهار الإطار العام له، ونخلص بعد ذلك إلى ذكر تعريف للوازع – إن شاء الله–.

قال العز بن عبد السلام: « الخوف من الله الذي يزع عن المخالفات لما رتب عليها من العقوبات» (العز بن عبد السّلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1/ص168).

أي يزجر الإنسان، ويجنّبه الوقوع في المخالفات الشّرعية.

قال ابن القيم: « الحياء من الله يدل على مراقبته وحضور القلب معه، لأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف، فمن وازعه الخوف، قلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء، قلبه حاضر مع الله » (إعلام الموقّعين، ابن القيم، ج3/ص383).

أي: أن حضور القلب كان نتيجة الخوف من العقوبة، وأن الذي يمنعه الحياء من الله يحضر قلبه محبَّةُ الله .

قال الشّاطبي: « يكتفي الشارع في طلبه بمقتضى الجبلة الطبيعية والعادات الجارية، فلا يتأكَّدُ الطلب تأكُّد غيره، حوالة الوازع الباعث على الموافقة دون المخالفة، وإن كان في نفس الأمر متأكِّدا » (الشّاطبي، الموافقات في أصول الشّريعة، ج3/ص122).

ومعناه أن هناك بعض الأشياء يتعين وجوبها لحفظ مقصد ضروري إلا أن الشارع الحكيم يكتفي بجعله مباحا لوجود داعي الجبلة مثال ذالك الأكل و الشرب لحفظ النفس.

ومن خلال إيرادنا لهذه الجملة من أقوال العلماء في استخدامهم للفظ الوازع سواءً باللّفظ الصريح أو بالكناية الدّالة عليه فإننا نخلص إلى جملة من الأمور منها:

المنارة للاستشارات

-أنَّ الوازع يتضمن في معناه أيضًا تحريك الواعظ في قلب المكلّف بحيث يجعل الجاني نكالاً وعظةً وعبرة لمن يريد أن يفعل فعله.

-أنَّ الوازع أيضًا في مفهومه الواسع يحمل معنى المحاسب والمؤنِب للنّفس الأمَّارة بالسّوء.

– أن الوازع يكون في أحيانٍ كثيرة هو الدافع أو الباعث الذي يساعد المكلّف على الإتيان بالطَّاعات.

-أنّ الوازع هو المذكِّر بعذاب الله، والعقوبة المترتّبة على الجريمة، وهو المذكِّر أيضاً بالثّواب المترتّب على الصَّالحات، فيكون الوازع بمثابة المرشد لسلوك الإنسان في الحياة.

وبناءً على ما تقدّم ذكره، واستناداً لما أشار إليه العلماء في أقوالهم سالفة الذّكر، يمكن أن نعرِّف الوازع الدّيني بأنَّه :" هو ذلك الواعظ الموجود في قلب الإنسان الذي يوصله إلى فعل الصَّالحات، ويرشده إلى رجاء الثواب، ويبعده عن الانحراف و يبصّره بعواقبه".

3.2 مفهوم فقه التّحضّر الإنساني وأسسه:

1.3.2 الدّلالة اللّغويّة لعبارة التّحضّر:

لكلمة الحضارة من النّاحية اللغويّة سبع معان (ابن منظور لسان العرب، ج1/ص658-659، مادة(حضر)):

-الحضور والشّهادة: نقيض المغيب والغيبة.

-بمعنى عنده: كنّا بحضرة ما.

-قرب الشّيء: كنت بحضرة الدّار.

-جاء أو أتى: حضرت الصّلاة، أو حضر القاضي.

-الحضر خلاف البدو، والحضارة الإقامة في الحضر.

-الحاضرة: الحيّ العظيم.

-الحاضر: ضدّ المسافر.

وقد استخلص بعض الباحثين معان أربعة متكاملة، تؤدّي إلى معنى الحضارة وهي لا يمكن أن تتجزّأ، وإلاّ فقدت مضمونها، وكلّ دلالة تمثّل جزءًا من بناء مفهوم الحضارة، ولابدّ من توافرها جميعاً في نسق واحد، وهذه الدّلالات أو المعاني هي:

– الشّهادة بمعنى التّوصية والعبوديّة لله التي تحدّد منهج الالتزام الإنساني في الحياة.

المنارة للاستشارات

- الشّهادة بمعنى قول الحق واتّباع العدل، والملاحظة، والمراقبة، والإخبار بالعلم، وتحصيل المعرفة.
- الشّهادة بمعنى التّضحية والفداء، وتقديم النّفس في سبيل الله تعالى، وفي سبيل تحرير الإنسان.
- الشّهادة بمعنى كونها وظيفة للأمّة الإسلاميّة. (السّامرّائي، نحن والحضارة والشّهود، ج1/ص72-73).

فالحضارة انطلاقاً من هذه المعاني الأربعة هي: « الحضور والشّهادة بجميع معانيها، التي ينتج عنها نموذج إنساني، يستبطن قيم التّوحيد والرّبوبيّة، وينطلق منها كبعد غيبي، يتعلّق بوحدانية خالق الكون، وواضع نواميسه، وسننه، والمتحكّم في تسييره، فإنّ دور الإنسان ورسالته هي في تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه وتحسينها، وتزجية معاش النّاس فيها، وتحقيق تمام التّمكين عليها، والانتفاع بميزاتها، وحسن التّعامل مع المسخّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها،لانّها مخلوقات تسبّح الله، أو رزق لابدّ من حفظه وصيانته، كذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كلّ مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوّة وحبّ الخير والدّعوة إلى سعادة الدّنيا والآخرة». (نور الدّين الخادمي، أبحاث في مقاصد الشّريعة، ص129).

ويتبيّن لنا من هذا أهمّيّة البعد الدّيني في تكوين أسس الحضارة الإنسانيّة القويمة المتكاملة.

2.3.2 الدّلالة المعرفيّة لعبارة التّحضّر:

في منظومة المعرفة بمختلف فنونها وفروعها (علم التّاريخ، علم الآداب، علم الاجتماع، علم النّفس...)، نجد تعريفات كثيرة لكلمة الحضارة، ولمشتقّاتها المتكاثرة (التّحضر، الفعل الحضاري، السّلوك الحضاري، الخلق الحضاري، صناعة الحضارات، البناء الحضاري، حوار الحضارات، العطاء الحضاري...)، كما نجد تعريفات متعدّدة لمترادفاتها الكثيرة (الثّقافة-المدنيّة-العمران....).

المنارة للاستشارات

والذي يهمّنا في هذا الصّدد بالخصوص هو الالتقاء المجمل والمطلق والمبدئي بين هذه التّعاريف ومدلولاتها، وبين مضمون التّحضّر الدّيني ومقصوده ومآله، والمتمثّل في رعاية الوازع الدّيني، الذي يعتبر حجر الزّاوية في بناء الحضارات المختلفة.

وقد عرّفت الحضارة باعتبار مضمونها وفقهها بتعريفات كثيرة منها:

- أنّ « الحضارة لكلّ أمّة تحتوي كل مقوّمات الحياة فيها، ويستوي في ذلك المقوّمات المادّيّة والعلميّة والمعنويّة» (أمير عبد العزيز، دراسات في الثّقافة الإسلاميّة، ص51).

- الحضارة: « نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزّيادة في إنتاجه الثّقافي، وتتألّف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصاديّة، والنّظم السّياسيّة، والتّقاليد الخلقيّة، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنّه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحرّرت في نفسه دوافع التّطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطّبيعيّة تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها» (مصطفى السّباعي، من روائع حضارتنا، ص35، نقلاً عن قصّة الحضارة، ترجمة زكي نجيب، ط1956م).

- أنّ الحضارة هي: «التّدخّل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطّبيعة، تجاوباً مع إرادة التّمرّد في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ولإنقاص العناء البشري» (السامرّائي، نحن والحضارة والشّهود، ج1/ص63).

- أنّ الحضارة هي: «ذلك الكيان المعقّد الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفنون والآداب، والقوانين والعادات، وجميع القدرات، والتّقاليد الأخرى، التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع» (علي القريشي، ابن نبي آفاق جزائريّة، ص46-47).

ومن خلال تعريفات الحضارة التي تكاد تتّفق على بيان جوهر التّفاعل الحضاري الذي هو الوازع الدّيني، وإن اختلفت العبارة في الدّلالة على ذلك، فإنّنا نقتنع بحقيقة الالتقاء بين فقه التّحضّر الإنساني المتمثّل في كونه أداءً إنسانيّاً مشتركاً يهدف إلى عمارة الأرض وحفظ نفوسها والانتفاع بمدّخراتها ومنع الخلل أو الاختلال فيها ودفع الفساد والضّرر عنها، وبين ضرورة الاهتداء في طريق تفعيل العمليّة التّحضّريّة الإنسانيّة في مختلف المجالات الحياتيّة بالمنهج الأخلاقي المنبثق عن رعاية الوازع الدّيني وحراسته.

المنارة للاستشارات

وهذا ما نلمسه في تعريف المفكّر مالك بن نبي للحضارة حيث يقول: «الحضارة هي مجموع الشّروط الأخلاقيّة والماديّة التي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدّم المساعدة الضّروريّة لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده، منذ الطّفولة وحتّى الشّيخوخة، وفي كلّ مناحي الحياة» (المرجع نفسه).

ولكي يتّضح لنا هذا المعنى بجلاء يتوجّب علينا الحديث عن العناصر الضّروريّة للحضارة، ومدى ارتباطها بالبعد الأخلاقي الدّيني، وهو ما سنناقشه في المحور الموالي.

3. العناصر الضّروريّة للحضارة وصلتها برعاية الوازع الدّيني:

1.3 الإنسان: إنّ تغيير الإنسان هو الشّرط الجوهري لكلّ تحوّل اجتماعي رشيد، وكلّ تغيير يفقد هذا الشّرط يبقى عديم الجدوى، وهو ما يعبّر عنه العلاّمة ابن خلدون بالعمران البشري، أو الاجتماع الإنساني، إذ يقول: «فإذن الاجتماع ضروري للنّوع الإنساني، وغلاّ لم يكمل وجودهم » (ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، ص71).

وعليه فأيّ إصلاح لا يمكن أن يستقيم ما لم يسر طبقاً للسنّة الاجتماعيّة، ولذلك فقد نال الإنسان مكانة عالية في المنظومة التّشريعيّة التي من مقاصدها توفير الحياة المريحة له، في جميع أطوار حياته، وهو ما يُعبّر عنه بفقه التّحضّر أو الحضارة، فنجد قسم الضّروريات الدّينيّة الحارسة للوازع الدّيني، هي المعينة على وجود حضارة إنسانيّة واعية، وهذا ما يُعبّر عنه معرّفوا الحضارة حينما ذكروا أنّها: « التّدخّل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطّبيعة، تجاوباً مع إرادة التّمرّد في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته، ولإنقاص العناء البشري» (السّامرّائي، نحن والحضارة والشّهود، ج1/ص63).

ولعلّ التّعبير بالحاجات هنا يُراد به الضّرورات بحسب هذا الإطلاق، ولا يُراد به الحاجات بحسب التّعبير المقاصدي المعروف؛ فالوازع الدّيني يهدف في حقيقته إلى وجوب المحافظة على النّفس الإنسانية وصونها عن كل ما يمكن أن يؤدّي إلى هلاكها أو تعرّضها لكلّ أذى؛ إذ هي العنصر الحيوي لتحقيق أي حركة تحضّريّة في الحياة الإنسانيّة، وهو أحد الكلّيات الخمس الضّروريّة في المنظومة التّشريعيّة المؤسّسة على رعاية الوازع الدّيني.

المنارة للاستشارات

كما يسعى الوازع الدّيني إلى توفير تغطية كاملة لحاجات العنصر الإنساني في الحياة، بل إلى تزيين هذه الحياة بكلّ ما هو كمالي تحسيني زائد عن الضّرورة والحاجة، ولعلّ هذا السّعي هو الذي يُشكّل الوعاء الأوسع لقيام حركة التّحضّر، أو أنّها تمثّل ذروة الحضارة وقمّة الإنتاج الثّقافي الرّوحي والمادي والبيئي، وهذا هو الغالب أو السّائد أو الشّائع من إطلاق عبارة الحضارة على شعب من الشّعوب، أو أمّة من الأمم، إذ تلحق هذه السّمة بأصحابها عندما يبلغون أعلى مراتب الزّينة، وأبلغ مظاهر البهجة والرّقي والازدهار، والتّرف والجمال والبهاء، يقول الشّاطبي–في هذا الصّدد–:«وأمّا التّحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنّب الأحوال المدنّسات التي تأنفها العقول الرّاجحات ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق» (الشّاطبي، الموافقات، ج2/ص11).

فلا عمل حضاري بنّاء إلاّ بعد مراعاة الوازع الدّيني المتمثّل في تقرير وإرساء ما هو ضروري، أو محتاج إليه، أو مساعد على ازدهار الحياة، وكلّ ذلك محقّق للمقاصد العمرانيّة والثّقافية والاجتماعيّة والإنسانيّة التي تشكّل ضروباً مهمّة من ضروب صنع الحضارة وبناء النّهضة، وتحقيق الإبداع في مجالاته الإنسانية، والكونيّة المختلفة.

1.1.3– الموارد الاقتصاديّة: لابدّ لكلّ إقلاع حضاري من موارد اقتصاديّة متمثّلة في المال، والزّراعة، والصّناعة، والتّجارة، والعمل، والإنتاج، وكل هذه المعاني نالت الحظّ الأوفر في المنظومة التّشريعيّة المؤسّسة على رعاية الوازع الدّيني، وهو ما يعبّر عنه بـ"فقه المعاملات"، وبالتّعبير المعاصر "الاقتصاد الإسلامي".

ويعمل الوازع الدّيني على ترشيد عمليّتي العمل والإنتاج، فيحث على العمل ويأمر به، كما قال تعالى:(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشّهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون) (.سورة التوبة، الآية105).

فالوازع الدّيني هو عصب الحياة للنّظام الاقتصادي، إذ كلّما قام المواطنون بواجباتهم كاملة ضمنوا إنتاجاً وافراً، ولا شكّ أنّ هذا الالتزام نابع من الوازع الدّيني الصّحيح، وإذا كان لابدّ من إجراء موازنة بين الواجبات والحقوق وبين الاستهلاك والإنتاج، فالأجدر بالمجتمع الذي يريد بناء صرح الحضارة أن يُرجّح كفّة الإنتاج والواجب على غيرهما، لأنّ المعادلة بينهما ركود وترجيح كفّة الاستهلاك.

المنارة للاستشارات

وهذا ما يؤكّد لنا أنّ الحضارة وثيقة الارتباط بالتّنمية؛ إذ ليست التّنمية سوى الشّرط المادي لبزوغها في حين أنّ هناك شروطاً معنويّة تتمثّل في الإرادة الصّادقة والعقيدة الخالصة، والفكر الجاد والفعّال وعلى هذا لا يمكن لشعب أن يضمن لنفسه تنمية سليمة بما يستورده فقط من التجهيزات الفكرية والعقائدية التي لا يمكن استيرادها أو يكون ذلك على حساب الشّخصية والعقيدة (عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص257-258).

ولا شكّ أنّ المحافظة على المال باعتباره عنصر من عناصر التّنمية الاقتصادية التي بدورها المحرّك الرّئيس في دفع الحركة التّحضّريّة في الحياة الإنسانية، هو من أساسيات الوازع الدّيني، فقد نهى الشّرع عن الإسراف في المال، أو وضعه في يد غير أمينة.

فالمال في نظريّة الوازع الدّيني هو أساس قيام الحياة كلّها، فلا حضارة ولا تنمية إلاّ بعد المحافظة على المال وترشيد اكتسابه وإنفاقه.

وليس العمل بهذه الدّعوة أمر يسير المنال، بل تواجهه تحدّيات كثيرة وكبرى، غير أنّها ستذلّل عند توفّر الإيمان القوي للعاملين في حقل الحضارة والتّنمية الاقتصاديّة بالقيم وبالإنسان وبالعقل والعلم.

وما يُعاب عن الحضارة الأروبّية هو تخلّيها عن الأخلاق والدّين، وميلها نحو الإباحية والمادّية، مع أنّها بلغت شأواً عظيماً في التّقدّم الحضاري المادي، وهذا ما يجعلنا ندعو إلى ضرورة الاهتداء بالوازع الدّيني أثناء القيام بأيّ إقلاع حضاري ما، لضمان النّفع المستمر للحياة الإنسانيّة والكونيّة.

2.1.3- النّظم السّياسية: من الضّروري لكل شعب يتطلّع إلى الرقي والازدهار، وإلى أي عمل ضمن الحركة التحضّريّة، أن يعمل جاهداً قبل ذلك على إيجاد نظام سياسي رشيد، يوفّر الحرّيّة، والعدل، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، ورعاية جميع شرائح المجتمع وأفراده، فبدون تحقيق هذا المبدأ يعتبر التّفكير في العمل الحضاري عبث لا فائدة من ورائه.

ومن أدبيات الوازع الدّيني توجيه النّاس إلى إيجاد قيادة سياسية رشيدة مؤتمنة على خيرات البلاد وأنفس العباد وأرواح المخلوقات، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وذلك

المنارة للاستشارات

ضمن ما يعرف بـ" السياسة الشّرعية"، أو" الفقه السّياسي" (مصلح عبد الحي السيد، السياسة الشرعية في الحكم والاقتصاد عند ابن خلدون، رسالة دكتوراه، ص40).

وانطلاقاً من قواعد الوازع الدّيني الموجّهة للسّياسة الرّشيدة يمكن الإشارة إلى النّقاط التّالية (السنهوري، فقه الخلافة وتطورها، ص130–131):

–السياسة عفو وتسامح وتأليف بين قلوب النّاس.

–السياسة انضباط ونظام وتوحيد ومؤاخاة.

–السياسة عمل جاد في سبيل إصلاح الحياة والكون، وتعمير الأرض بالعمل والإنتاج وترسيد الاستهلاك.

–السياسة حكم بالعدل وابتعاد عن الهوى.

ونستخلص من كلّ ذلك أنّ الوازع الدّيني يحرس على وجود نظم سياسية عادلة وآمنة ومستقرّة، حتى تكون عوناً في دفع عجلة الحضارة وسيرورتها نحو الرّقي إلى الأمام، تحقيقاً لتطلّعات الشّعوب.

3.1.3 متابعة العلوم والفنون: لا يخفى علينا قيمة العلم في أيّ بناء حضاري، ولابد من أن يتأسّس هذا البناء على مراعاة التّقاليد والفنون والثّقافات عند ايّ شعب من الشّعوب، وفي أيّ منطقة من المناطق.

ومن الضّروريات الأساسيّة للوازع الدّيني الأمر بالعلم، وفتح باب الاجتهاد والتّفكّر، والاستفادة من التّجارب الإنسانية عبر التذاريخ بغض النّظر عن توجّهات أصحابها، وهو ما يعرف بالمحافظة على كلّ العقل.

وقد وردت الآيات تترى– باعتبارها المصدر الأوّل لرعاية الوازع الدّيني– تأمر بالتّدبّر والتّعقّل والتّفكّر، ومدحت آيات أخرى أهل العقول الرّاجحة المتفكّرة، وأصحاب الألباب النّيّرة المنيرة، التي تبصر الهداية وتتّبع طريقها.

كما يهدف الوازع الدّيني فيما يهدف إليه إلى ضرورة ربط العلم ومختلف الفنون بالأخلاق، لأنّ العلم حين يفقد تحصينه الأخلاقي يتحوّل إلى نزعة آلية تستعبد الإنسان، وتقوده إلى المادية التي تحوّل سلوكه إلى نفعية لا تعرف للفضيلة معنى مطلقاً.

المنارة للاستشارات

إنّ منطق العلم حين يتجرّد من المدلول الأخلاقي سيترك انعكاسات سلبية على صعيد السياسات الاقتصادية للدّول، كما هو الوضع الرّاهن في الدّول الرّأسمالية التي تلجأ إلى إتلاف الفائض من المواد الغذائية للمحافظة على التّوازن بين العرض والطّلب.

فانفصال العلم عن القيم الأخلاقية ينجم عنه ظهور الآثار والاتّجاهات السلوكية الخطيرة الضارة اجتماعياً وإنسانياً، وتطبع حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمنطق مادي صرف خال من كل معنى للخير والفضيلة والإنسانية، وعليه فإنّ طبيعة العلاقة بين العلم والأخلاق هي المعيار الأساسي للحكم على الثّقافة التي تربي الفرد والمجتمع على الصلاح والتّقدّم والتّحضّر، أو تربيهم على اتّجاهات أخرى معاكسة لذلك. (محمّد سليم العوا، النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص49).

فإذا كنا نسمع بعض الأصوات ونقرأ بعض الكتابات التي تدعو إلى تعويض الأخلاق الدّينية بأخلاق وضعية، علمانية، وتنكر الفطرة البشرية فإنّه من الضّروري علينا أن ننادي بالتصرّف في ناتج العلم طبقاً للأخلاق والدّين لنتجنّب الكوارث والأزمات النّاجمة عن فصل العلم عن الضّمير وعن القلب، وكل هذا من أجل ضمان السير الحسن لمنظومة فقه التّحضّر الإنساني.

فتعيّن بذلك على الشّعوب المتطلّعة للحضارة والتّحضّر، متابعة أيّ تقدّم تكنولوجي، والتّكيّف معه، على وفق منظومة الأخلاق المبنية على الوازع الدّيني لأجل الوصول إلى التّقدّم الحضاري المنشود.

2.3. بعض مظاهر الحضارة في ظل رعاية الوازع الدّيني:

1.2.3. تحرير الإنسان من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدّين: وذلك بتحقيق الوحدانية المطلقة في العقيدة، فالمناداة بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه؛ هو مظهر من مظاهر الحضارة والمتمثّل في الحرّيّة من كلّ القيود البشريّة، مهما كانت سلطتهم في الحياة الدّنيا، فالتّوحيد يعمل على تصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين.

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كلّ الأسس والنّظم التي جاءت بها الحضارة المبنيّة على الوازع الدّيني، فهناك الوحدة في الرّسالة، والوحدة في التّشريع، والوحدة في الأهداف العامة،

المنارة للاستشارات

والوحدة في الكيان الإنساني العام، والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التّفكير، وكل هذه الأنواع من الوحدة تعمل على تأسيس قوي لإقلاع حضاري إنساني مشترك يخدم الغايات البشريّة، ويلبّي الحاجات الإنسانية.

وهذا ما نلمسه في تاريخ الأمم السّابقة، وفي المراحل التي حكم فيها سلطان الوازع الدّيني الصّحيح لحقبة طويلة من الزّمن.

2.2.3. المؤاخاة بين كلّ الشّعوب الإنسانية والمجتمعات البشريّة، ونبذ عداوة الإنسان لأخيه الإنسان المنطلقة من الاختلاف في الدّين أو اللغة أو اللّون: وهذا ما يعرف في تركيبة المنظومة الحضاريّة بـ"النّزعة الإنسانيّة"، وهو أحد روافد العمل على مقتضى الوازع الدّيني.

فالوازع الدّيني أعلن هذه الوحدة انطلاقاً من اعتبار المشترك بين الإنسانية على صعيد الحق والخير والكرامة، ومختلف القيم النّبيلة، فأصبحت حضارته عقداً تنتظم فيه جميع العبقريات للشّعوب والأمم التي هيمن عليها سلطانه، ولذلك كانت كلّ حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد أو أمّة واحدة، غير الحضارة الإسلاميّة المبنية على رعاية الوازع الدّيني فإنّها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشّعوب، فأبو حنيفة ومالك والشّافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممّن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلاّ عباقرة قدّمت فيهم حضارة الوازع الدّيني إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السّليم. (عفيف طبارة، روح الدين الإسلامي، ص476).

3.2.3. تأسيس الأنظمة المختلفة والأنشطة المتنوّعة في مختلف الميادين على المبادئ الأخلاقية: وهذا هو السّبب الرّئيس في استمرار الحضارات، فكلّ حضارة لا تبنى على أساس الأخلاق فهي تمشي نحو المجهول، إن لم نقل أنها تتآكل يوماً بعد يوم حتّى تتمحي وتندحر من دون أن تحقّق شيئاً للبشريّة، ولذلك لا نعجب من تأسيس نظريّات فلسفيّة واجتماعيّة تقوم على أساس الأخلاق الفاضلة من قبل بعض الفلاسفة والمفكّرين الذين عاشوا في المجتمعات التي غاب عنها العمل بمقتضى الأخلاق، مثل الفيلسوف الألماني"إمانويل كانت"

المنارة للاستشارات

الذي أسّسه نظرته للحضارة في كتابه" نقد العقل العملي" على تفعيل المبادئ الخلقيّة مجرّدة عن كل النّوازع النّفعيّة (لؤي الصافي، العقيدة والسياسة، نظرية عامة للدولة، ص53).

وهذا ما نادت به الحضارة المبنية على أساس الوازع الدّيني، فنتج عن ذلك مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً في الحكم وفي العلم، وفي التّشريع، وفي الحرب، وفي السّلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة، فباتت حضارة تستحق الإعجاب لما قدّمته من سعادة ورقي دائم ومستمر، ونفع غالب على ما يمكن أن يشوبه من آلام مصاحبة له بمقتضى السّنن الإلهيّة في الكون.

4.2.3. التسامح الدّيني: ففي ظل رعاية الوازع الدّيني لا يمكن أن تجد مكاناً للعنف ولا للإرهاب ولا للتّطرّف، فكل هذه المصطلحات والمفاهيم دخيلة على فقه التّحضّر المنطلق من الوازع الدّيني، فالذي لا يؤمن بدين ولا بإله، لايبدو عجيباً إذا نظر إلى الأديان كلّها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدّين الذي يؤمن بأن دينه هو الحق، وأنّ عقيدته أقوم العقائد وأصحّها، ثمّ يتاح له أن يحمل السّيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصّة القضاء، ثمّ لا يحمله إيمانه بدينه على أن يجور في الحكم، أو ينصرف عن سنن العدالة، أو يحمل النّاس على اتّباع دينه بالقوّة والسّيف، إنّ رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التّاريخ!، ولكن هذا ما تنتجه الحضارة المؤسّسة على وازع ديني صحيح، والشّواهد التّاريخية على ما قلناه كثيرة لايمكن عدّها ولا حصرها. (مصلح عبد الحي، السياسة الشرعية في الحكم والاقتصاد عند ابن خلدون، ص42).

4. تحليل النتائج:

– أنّ للوازع الدّيني أثر بالغ الأهمّيّة في النّهوض بالمجتمعات نهوضاً حضاريّاً وعمرانيّاً، وأنّه يعتبر من أهمّ عوامل بناء الحضارة الإنسانية والعمران البشري، وأنّ أسس الوازع الدّيني التي ترجع إلى الإيمان بالله والتّربية الإسلامية والوسطيّة المنهجيّة في ذلك لها بالغ الأثر أيضاً في الاستفادة من الموروث البشري الحضاري عبر التّاريخ.

– أنّ علاقة الوازع الدّيني بقيم الحضارة وعناصرها من الإنسان والأشياء والفكرة أو المنهج، واضحة وجليّة ومهمّة، وأنّه لابدّ من الفكرة الدّينيّة من أجل استكشاف المسخّرات الكونية

المنارة للاستشارات

والنّعم الإلهيّة، وترشيد استعمالها والاستفادة منها، عن طريق العمل والإنتاج الذي يزدهر إذا كان منطلقاً ومرتكزاً وعائداً إلى رعاية الوازع الدّيني وتفعيله في جميع مجالات الحياة.

– إذا بحثنا في نظريّة الوازع الدّيني وعلاقتها بمكوّنات الحضارة الإنسانية ترآى لنا أنّها تعتبر بمثابة حجر الأساس في تفاعل تلك العناصر من أجل بناء حضارة متكاملة تهتمّ بالمادة ولا تنسى الرّوح، وتربط الإنسان بالزّمان والمكان، وتوصله إلى السّماء ولا تقتلعه من الأرض، فيظلّ التّوازن الحضاري قائماً ما كان الوازع الدّيني هو الرّابط والمحرّك لتلك العناصر والمكوّنات الحضاريّة، وسقطت الحضارات السّابقة إلاّ بسبب عدم وجود هذا الرّابط وهو الوازع الدّيني أو ضعفه.

5. خاتمة:

من خلال المحاور التي ناقشناها في هذا المقال نخلص إلى أنّ الوازع الدّيني الصّحيح من أكبر عوامل رقي الحضارات، ولو نظرنا إلى ما تركه لنا التّاريخ الاجتماعي لوجدنا ذلك صحيحاً، فمن بين جدران المساجد ودُور العلم في بغداد، ودمشق، والقاهرة، وقرطبة، وغرناطة، انطلقت أشعة العلم وجحافل العلماء المتطلّعين لحضارة الإنسانية، معلنين ارتباط الوازع الدّيني بالحركة الحضاريّة في الحياة الإنسانية، منادين بضرورة توثيق الصّلة بين العقل والواقع، والقلم والسّيف، والأحكام والأخلاق، والسّلطان والدّين، لضمان نجاح المشاريع الاقتصادية والتنموية والسياسية، ولضمان الازدهار الكامل والمستمر للبشرية والإنسانية، فلا مندوحة من تعميق الصّلة بين النّظرة الدّينية الصّحيحة والأمل في بناء مشروع حضاري رشيد، يكفل ضرورات وحاجات البشر، ويضمن الخير والسلام للكون والحياة.

ومهما كانت الصعوبات والمعوّقات والأخطار، فإنّه من المُأمّل جدّاً بناء حضارة عصرية تؤمن بالقيم الإنسانية، منطلقة من رعاية الوازع الدّيني بشرط احترام العناصر الضّرورية للحضارة.

ومن أبرز النّتائج:

– أنّ الوازع الدّيني كفيل ببناء حضارة إنسانيّة حقّة يستطيع الإنسان من خلالها أن يستفيد استفادة كاملة بالمسخّرات الكونية وتوظيفها توظيفاً رشيداً.

المنارة للاستشارات

– أنّ الوازع الدّيني حريص على وجود نظم سياسية عادلة وآمنة ومستقرّة، حتى تكون عوناً في دفع عجلة الحضارة وسيرورتها نحو الرّقي إلى الأمام، تحقيقاً لتطلّعات الشّعوب.
– أنّ الوازع الدّيني من شأنه أن يخفّف من غلواء الطّمع، ومن سعار المنافسة، ومن داء التّكالب والتّزاحم على المادة، ويُسند الفرد إلى أصول ثابتة من القيم الرّفيعة، والمثل العليا، فتنير طريقه، وتسدّد خطواته، وترفعه من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانيّة الرّاشدة، فتراه يرفض الحرام بإصرار، ويقبل الحلال القليل بقناعة.

ولعلّنا ندرج أهمّ التوصيات التي من بينها:

–التّركيز على أهمّيّة الأخلاق والوازع الدّيني في النّهوض والشّهود الحضاري، ويجب أن نتصوّر هذه الحضارة الغربية التي وصلت إلى ما وصلت إليه من إنجازات واكتشافات إذا أضيف لها الوازع الدّيني، وأمكن تفعيله، فكيف يكون مستواها ورقيّها ونفعها للبشريّة وللعمران عن طريق البناء الرّوحي المعنوي والمادّي الحسّي.

–استعمال كلّ الإمكانات التّعليميّة والتّربويّة والإعلامية من أجل تقرير مقصد الوازع الدّيني ورعايته والتّنبيه من خلال ذلك على تأسيس العمل الحضاري على وفقه لضرورته في المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثّقافي والصّناعي والتّجاري، وكلّ المعاملات التي تكون بين النّاس مهما كانت أعرافهم وجنسياتهم ودياناتهم، وهذا من مظاهر الحضارة الإنسانية التي تعين على البناء والعمران البشري.

6. قائمة المراجع:

- <u>**المؤلفات**</u>:

1) أمير عبد العزيز، دراسات في الثّقافة الإسلاميّة، مدخل إلى الدّين الإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د،ت،ط).
2) ابن العربي، أبو بكر محمّد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق وتخريج: عبد الرّزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة1425هـ–2004م، ط1.
3) ابن خلدون، عبد الرّحمان، مقدّمة ابن خلدون، دار الرّشاد الحديثة،(د،ت،ط).

المنارة للاستشارات

4) ابن عاشور، محمّد الطّاهر، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، تحقيق: محمّد الطّاهر الميساوي، دار النّفائس، الأردن، سنة2001م، ط1.

5) ابن قيم الجوزيّة، إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، تحقيق:عصام الدّين الصّبابطي، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)،سنة1425هـ-2004م.

6) ابن منظور، محمّد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1،(د،ت،ط).

7) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، الصّحاح، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، سنة1999م، ط1.

8) سابق، السّيّد، عناصر القوّة في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، (د،ط)، سنة1398هـ.

9) السّامرّائي نعمان عبد الرّزّاق، نحن والحضارة والشّهود، وزارة الاوقاف، قطر، ذو القعدة 1421هـ، فيفري 2001م، ط1.

10) السنهوري، فقه الخلافة وتطورها، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422هـ-2001م، ط1.

11) الشّاطبي، إبراهيم بن موسى اللّخمي، الموافقات في أصول الشّريعة، تحقيق: عبد الله درّاز، دار المعرفة، بيروت، سنة 2001م، ط5.

12) عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، 2007م، ط2.

13) عفيف طبارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، أغسطس1995م، ط30.

14) العز بن عبد السّلام، عزّ الدّين عبد العزيز، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د،ت،ط).

15) علي القريشي، ابن نبي آفاق جزائريّة، التّرجمة العربيّة، مكتبة النّهضة الجزائريّة، الجزائر، 1964م.

16) لؤي الصافي، العقيدة والسياسة، نظرية عامة للدولة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1422هـ-2001م، ط1.

المنارة للاستشارات

17)مالك بن نبي ، المسلم في عالم الإقتصاد، دار الشروق، بيروت 1974م ، (د.ط).

18)محمّد سليم العوا، النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، 1410هـ-1989م، ط1.

19)نور الدّين الخادمي، أبحاث في مقاصد الشّريعة، دار المعارف، بيروت، 1429هـ-2008م، ط1.

- **الأطروحات:**

1) مصلح عبد الحي السيد، السياسة الشرعية في الحكم والاقتصاد عند ابن خلدون، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الاردنية، 1420هـ-كانون الثاني2000م.

المنارة للاستشارات